

لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿ [النحل : ٤٠] فالقول هنا بمعناه الحقيقي لأنه تأكد بأمرين : أحدهما تكراره (قولنا) و (نقول) والآخر : أداة القصر « إنما » .

ومن الواضح أن العقيدة الدينية لعبت دورها في القضية ، فالذين قالوا بالهجاز ، وتأولوا ما جاء من القول والكلام منسوبا إلى الله تعالى في القرآن الكريم ، على أنه من هذا القبيل إنما أرادوا أن يجنبوا الذات الإلهية كل ما يمكن أن يكون فيه شبهة مماثلتها للحوادث من وجهة نظرهم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . إلا أن ابن قتيبة كان له اجتهاده ورأيه المتحرر الذي يستند إلى عرف اللغة ، واستعمالاتها عند العرب في الشعر والنثر ، دون أن يرى في ذلك مساسا بأصول العقيدة . وبهذا المنهج أخذ يفسر الآيات السابقة التي جاءت على ألسنة القائلين بالهجاز في القرآن بشكل مطلق ، لاسيما فيما نسب إلى الله تعالى من قول أو وحى ، ولم ير بأسا في أن يكون المراد ببعضها الهجاز ، وبعضها الآخر الحقيقة ، أما أن تكون جميعا من قبيل الهجاز - كما ذهبوا - فذلك مالا يوافقهم عليه أحد . وعلى هذا فالوحي من قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ يُقصد به الإلهام بمعنى تسخير النحل لاتخاذ البيوت ، وسلوك السبل والأكل من كل الثمرات ، وقد جاء هذا المعنى في قول المعجاج وقد ذكر الأرض :

وَوَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ

(وحى : أوحى سقطت منها الهمزة) .

أما الوحي في قوله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ... ﴾ فليس بمعنى الإلهام ، لأنه لا يقال لمن ألهمه الله : كلمه الله ، وقد ذهب من قبل إلى أن الكلام لا يطلق إلا بمعناه الحقيقي ، اللهم إلا في موضع واحد ، وليس هذا منه ، ومن ثم فإن الوحي الأول يراد به ما أراه الله تعالى الأنبياء في منامهم ، والكلام من وراء حجاب : بتكليمه موسى ، والكلام بالرسالة : ارساله الروح الأمين بالروح من أمره إلى من يشاء من عباده .

ولا نود أن ننساق وراء هذا الجانب من قضية الهجاز ، فنعرض لسائر تأويلات ابن قتيبة للآيات التي يرى الفريق السابق أنها من الهجاز ، على حين يراها